

لمقدار فاذا جاء اجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون
ولقد عني الناس منذ ما نشأوا ان تطول حياتهم فما ظفروا من طيب
الحياة بغير حلاوة الاماني الكواذب وقد طالما هتفوا بالبقاء ونادوه فلم يكن
غير الردى من مجاوب ولكن ذلك على تحققة لديهم لم يصرفهم عن التماسه
يوماً ولا ساعة ولا اوهن طلابه عزائمهم وافكارهم على تأكد العجز وامتناع
الاستطاعة بل لقد افرطنا في تمني البقاء حتى خلناه حاصلًا فزعم كل منا ان
الناس يموتون وانه الدائم ولولا هذا الزعم وترجي البقاء لامتنع من بيننا
الجهد والتحصيل اولم يكن عندنا علم ولا عالم وحقيق بانني ان يزعم انه
لا يموت اذ لا يرى لموته من حياته برهاناً وان رأى البراهين شتى فيمن
يموتون وما كان ذلك الا من فتنة الدنيا الغرور وانما الدنيا دار القتون
على ان الناس وان رأوا حقائق الموت شكوكاً بالقياس الى ما يجدونه في
مجموعهم من اتصال الحياة ومعافاة المرضى ونجاة المحتضرين وكون الدنيا كلها
حياة فان كون شيوخهم اقرب الى الموت وشبابهم اذنى من الحياة قد صار
امراً مقررًا لديهم بل لقد صار من جملة الحقائق التي لا جدال عليها ولا مشاحة
فيها ولكنك مع ذلك ترى الفتى فيهم يزعم لفرط تمنيه البقاء ان حياته لا تزول
وتجد الشيخ على بعض اعترافه بخيانه قواه يزعم ان حياته تطول وانه لا بد له
من العيش وهو شأن على منافاة الحقيقة له ونكران الحاصل لوقوعه ترى
الناس يغالطون ضمائرهم فيه ويخدعون نفوسهم بوجوده ثم هم على كونهم
معتقدين اعتقاداً غريباً باب البقاء يدوم والحياة تمتد تجدهم مختلفين حين
رجوعهم بعقولهم الى العلم وامكان اسباب البقاء فمنهم من يقول انه لا برهان
للموت ولا داعي اليه لانه مادام الانسان حياً معافى فانه في امكانه او امكان

الحيلة لو ارادها او تمت له ان يعيش الى الابد على نفس الحالة التي هو عائش
فيها اذ ان البقاء مسبب عن حالة وهذه الحالة موجودة له ولولاها لما كان
عائشاً لذلك ينبغي ان يظل حياً محتالاً على بقاء سبب الحياة نفسه وان تغير
الجو والاقليم والاخلاق كل ذلك كان الانسان حياً بين اثائه وتقلباته فليس
ثمت من مانع ان يكون عائشاً معه على طول المدة وتراخي الزمن فهم على هذا
الزعم يظنون الانسان مثل ساعة مادام لولها يدور لا بد لها من الحركة وما
دام المعقل من اجزائها يعالج او يستبدل بالحيلة لا بد لها من دوام العمل
وهذا الرأي مقبول بالقياس الى النظر العقلي وان افسدته الحقيقة الحاصلة
ومنهم من يقول بل الموت لا بد منه وان جسم الانسان ليس كالساعة
اذا فقد منها جزء امكن الاتيان بجزء مثله تماماً حتى يصح دوام حركتها الى
الابد بل هو تنحل منه دقائق خفية للحياة لا يشعر بها الحي المفقودة منه ولو
شعر بها لما امكنه معرفة ذات الموضع المفاقد ليعيضا اليه بالحيلة ومن اجل
هذا ينشأ الضعف التدريجي الذي يوصل الى الهرم ويؤدي الى الموت وهذا
الرأي على كونه ليس بظاهر البرهان لا بد من التسليم به لان الحاصل هكذا
وهذا الموت ملء اسماعنا وانظارنا كل لحظة
ولكن زعم كل حي انه لا يموت لانه لم يمت ولا يمكن ان يشعر في نفسه
بالموت وهو حي لمن المزايم التي لا تدني بعيداً ولا تنيل قريباً بل هي قد
تكون من جملة اسباب الغبطة والمسرّة التي تدعو الى طول بقاء الانسان
لسنه المقرر المألوف واما زعمه ان حياته تطول وان الاحتيال يعين على ذلك
فما يجب ان يعتبر ويسلم به لانه ما دام عمر الانسان غير مقرر لديه ولا هو
عالم بمدة بل هو مقدر له منذ البدء فما المانع العقلي ان تكون حياته على البقاء

وطول عمره بسببها حاصلين له من ذلك المقدور نفسه اي انه يكون قد اجتهد ليعيش طويلاً ثم عاش طويلاً لانه هكذا قدر له انه لدى الحقيقة لا مانع من اعتبار ذلك مادام لا تقيض له وما دام الناس المحتالون لحياتهم يعمرّون. ولقد عني الغربيون بذلك عناية كبرى حتى صارت اطالة الحياة معدودة عندهم علماً ذا شروط ولهم على صحته براهين عديدة لا سبيل الى نكرانها ولا مندوحة عن حرمة القياس فيها فهم اذا نظروا الى مدينة لهم ذات مئة الف نفس فوجدوا ان موتاهم خمسة آلاف في العام ولم تكن ذات اسباب صحية عمدوا الى شوارعها مثلاً فبلطوها فنقص عدد الموتي الى ثلاثة آلاف ثم يرون ذلك كثيراً فينشئون لها المجاري ونظائرها فيسقط العدد الى اثنين وهكذا حتى لا يصير الموت حاصلًا الا من التفريط الصحي الافرادي او من الانتحار والقتل وعوادي الطبيعة وفتكاتها التي لا ترد ومن هنا علموا ان طول الحياة يمكن كل حي وان تمني الخلود اذا كان غروراً للنفس يدعو لها غبطة لا تفيد فان اطالة الحياة ليست بغرور. هذا الطاعون الفتاك القاتل كان يزور اوربا فيجتاحتها اجتياحاً حتى لقد اهلك من اهلها في عام واحد نحو ١٤ مليون نفس على حين لم يكونوا كلهم مئة مليون واما في هذا العهد فقد زار اكثر مدائننا اذ نزل في مرسيليا وفيينا ووليسبون وغلاسكو ولندن فما تجاوز تلك العواصم العظمى ولا اردى من قومها اكثر من عشرة انفس من بين تلك الخمسة مليون نفس وكان كل هذا من شدة الحرص على سلامة الصحة او طول البقاء

وليس طول البقاء حاصلًا حيث جهد الانسان واحتياله بل لقد تجهد الطبيعة في حفظ الحياة اكثر من الحي نفسه فنحن قد قرأنا فصلاً في احدي

المجلات عنوانه «المدائن طبيبات» ذكرت فيه ما يكون للاقاليم والمواقع من فرط التأثير في صحة الانسان وطول بقائه فانها عينت قرية في بلاد الانكليز عدد اهلها ثلاثة آلاف وقالت انه تمر عليها المدة من ثلاثة شهور الى اربعة وخمسة فلا يموت فيها احد ولا يستدعى لساكنها طبيب. ثم قالت انه يموت من كل عشرة آلاف نفس في انكترا نحو ٦٠٠ نفس بامراض القلب على حين لا يموت في بلاد المكسيك ٩٥ فقط من ذلك العدد مع ان حيلة الانكليز اوفر على الشفاء ولكن حيلة الطبيعة هناك كانت اشد وفوراً. ثم ذكرت غير ذلك مدناً وحالات كثيرة يمكن بها طول البقاء وامتداد السلامة ولكن لا حاجة لبسطها لانها كلها معروفة لدينا بما نشاهده من حسن الحياة في بعض اقاليمنا وقرانا ولكن لما كان بعض المكان لا يسهل كل السكان كان من العبث ومحاوله الممتنع ان ندعو كل الناس الى سكنى القرى واعالي الجبال ومواطن الصحة والعافية ولكننا نذكر للجميع ان طول الحياة على امكانه بالحيلة اذا لم يكن من ماربهم كلهم او لم تكن محاولتها من نيتهم واعتقادهم فلا شك ان سلامة الجسم ودوام العافية انما هما من مطلب الجميع وهم الجمهور لانه لا يطيب بدونهما عيش مهما امتد ولا تحلو بغيرهما حياة كيف طالت فليجهد كل منا لسلامة جسمه يكن السعيد المسرور وليدع كل ما قيل عن طول البقاء وخلود الاجسام وكل ما يوحيه الغرور فانما الحياة قرينة الموت ولا وجود بدونهما ولولا القبور ماعمرت القصور ورحم الله علامتنا الشيخ ناصيف اليازجي لقوله الصادق المأثور

لولا قديم الموت لا صطنع الوري موتاً فأت الناس بالمتجدد والموت ليس بجيد لكننا لولاه كان الحال ليس بجيد